المجلة الجزائرية للدّراسات الإنسانية
E.ISSN: 8506-2716
ISSN : 2716-7984
المجلد:04/ العـدد:01 (2022)، ص ص 32– 46

الدّراسات اللّسانية النصّية عند المفسّرين:
الاتّساق والانسجام أنموذجا

The Studies Of Linguistique Textuelle at interpreting Koran: Cohésion and Cohérence examples

د.حمزة بوزيان[1] Dr.Hamza Bouziane

جامعة وهران 1 أحمد بن بلّة

تاريخ الاستلام: 2020/12/30 تاريخ القبول: 2022/01/22 تاريخ النشر: 2022/07/24

ملخص:

أدركت الدّراسات الحديثة أنّ لسانيات الكفاية اللّغوية التّركيبية عَجِزت عن مُسايرة التقدّم المعرفي العلمي الذي بدأ يهطع منذ مطالع القرن العشرين، فقامت دراسات كثيرة بالانتقال من منهج لسانيات الكفاية اللّغوية التّركيبية إلى منهج آخر يسمّى لسانيات الكفاية النّصّية، ويقصد بلسانيات الكفاية النصّية العلم الذي موضوعه هو البحث في بنية النصوص وتراكيبها الكلّية. وفي ضوء هذه المقاربة اهتمّ الباحثون ببعض المرتكزات التي أثارت عنايتهم بالنّص؛ لِما لها من دور في تعالق النّص وتناسقه، ومن ضمن تلك المرتكزات نذكر الاتّساق والانسجام، فقد اعْتُبِرا أهمّ ميزة لربط أجزاء الخطاب.

لكن لم يكن هذا التصوّر جديدا على العرب، فقد عرفوا شيئا منه بوجه أو بآخر، وخصوصا علماء التفسير الذين اهتمّوا بكثير من الآليات تتّصل بلسانيات الكفاية النصّية، وفق ما عُرف عند الغربيين فيما بعد وأطلقوا إصلاحات خاصّة لكثير من الظواهر اللّسانية النصّية من حيث الشكل والمعنى جميعا، وهذه النظرة لم تكن بعيدة عمّا رآه الغربيون، بل كان فيها من الآراء ما يكاد يتطابق تمام التطابق مع كثير ممّا ذهب إليه علماء اللّسانيات النصية اليوم، ولكن بمسمّيات غير التي نراها اليوم . من هذا المنطلق، سنحاول البحث عن أهمّ مرتكزات لسانيات الكفاية النصّية وقواعدها لكن من منظور علماء التفسير، ومدى تمثّل هؤلاء المفسّرين لهذه المرتكزات بغية تفسيرهم لكلام الله تعالى.

[1] – اسم الباحث المرسل

كلمات مفتاحية: لسانيات الكفاية النصّية، الاتساق، الانسجام، جهود الطبري، جهود الرّازي، جهود الزمخشري.

Abstract

In fact the modern studies have shown that the linguistic of the sentence is no more able to follow and cope with the cognitive progess and knowledge as a result they thought of moving from the linguistic of the sentence to the linguistic of the text.

We mean by the linguistic of the text the science that studies the structure of the text giving importance to both consistency and cohesion.

This fact and point was not neglected by the Arab specially those who were interested of analyzing and interpreting the Koran.

From this concept, we will try to search for the standards of the text linguistic for the researchers in the field of interpreting also we will see how they gave it importance so as to understand the Koran.

Keywords: Linguistique Textuelle؛ Cohésion؛ Cohérence ؛Efforts Al-Tabari ؛Efforts Al-Razi؛.Efforts Al-Zamakhshari .

1. مقدمة:

يكاد يتّفق الباحثون على أنّ منهج اللسانيات النصية العالمية قد أشرق في نهاية الستينات من القرن العشرين على يد **هاريس** (**Harris**) ، وذلك عند نشره دراستين مهمّتين تحت عنوان **تحليل الخطاب** (**Analyses of Discours**)، قام فيهما بتحليل منهجي لبعض النصوص، ومما أثّر في هذا الخصوص تشكيكه في صواب استغناء اللّسانيات عن المظهر الكتابي للغة، واقتصارها على اللّغة المنطوقة في دراستها للنظام اللّغوي، وهو ما كان سببا – في اعتقاده – في إغفال وجود جمل طويلة ولا متناهية يعجز النحو عن الإلمام بقواعدها ما لم يعتمد على الكتابة التي توصّلنا إلى دراسة النص[1].

وفي ضوء لسانيات الكفاية النصّية اهتمّ الباحثون ببعض الآليات التي أثارت عنايتهم بالنص؛ لِما لها من دور في تماسك النص وتعالقه، ومن ضمن تلك الآليات نذكر الاتّساق والانسجام، فقد اعْتُبِرا أهمّ ميزة لربط أجزاء الخطاب الأ دبي، هذا الأخير الذي قد يُصاحبه غموض وملل مع استمرار القراءة ما لم يكن متّسقا ومنسجما،

أمّا لو ولّينا وجوهنا شطر العرب وبالأخص لدى مفسّري القرآن الكريم، فإنّنا سنجد الجهد الذي قدّمه هؤلاء المفسّرون لا يقلّ أهمّية عمّا حاول أن ينسبه الغربيون إلى أنفسهم حول مفاهيم لسانيات الكفاية النصّية، بالأخص في مضمار الاتساق والانسجام ال ذَين ينبغي لمحلّل الخطاب إدراك مرتكزاته م ا، بل سنجد بهذه التّفاسير نفائس لا تُحصى من القضايا اللّغوية الغربية.

وممّا يميّز علماء التفسير هو أنّ دراستهم لتلك المرتكزات التي عوَّلَ عليها أصحاب لسانيات الكفاية النصّية؛ كان من منظور هؤلاء المفسّرين استعمالا وتنظيرا حتّى ليبدو لقارئه أنّهم لغويون، فمثلا قاموا بإعطاء مفاهيم تلك المصطلحات التي كانت تربط النصّ القرآني شكلا ودلالة، ثمّ أعطوا آراء سديدة في دور هذه المصطلحات في شرح اللَّبس الذي قد يقع فيه مفسّر القرآن.

من هذا المنطلق، سنحاول رصد وإثبات معايير لسانيات الكفاية النصّية وقواعدها عند علماء التفسير، ومدى تمثّلهم لهذه المعايير بغية تفسير كلام الله تعالى.

2. . لسانيات الكفاية النصّية:

تباين العرب واختلفوا في ترجمة هذا المنهج اللّساني الغربي، فمنهم من يسمّيه نحو النص، ومنهم من يترجمه بلسانيات النص، والبعض الآخر يناديه علم اللغة النصي، ويعود سبب تشعّب المصطلحات إلى كون هذا المصطلح ليس وليد البيئة العربية وإنّما هو مترجم، وهذا ما أدّى إلى التفاوت في التّسمية، عِلما أنّ لكلّ هذه الأسماء منطلق واحد وختام واحد، هو الالتزام بدراسة هيئة النصوص، التي تقضي بأنّ النص هو وحدة لغوية سِمته الأساسية هي الربط.

أمّا تعريف هذا المنهج فقد لَقِي رَوَاجًا في الدّراسات الغربية والعربية، إلّا أنّنا سنكتفي بتتبّع الكتابات العربية الحديثة، لأنّها حاولت إيضاح كلّ الملابسات المفهوميّة التي تحيط به، فمثلا أفصح عنه إبراهيم الفقي بأنّه: " **فرع من فروع علم اللغة، يهتمّ بدراسة النصّ باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بمراعاة جوانب عديدة أهمّها التماسك والترابط، ووسائله، وأنواعه، والإحالة أو المرجعية Référence وأنواعها، والسياق النصي Context Textue، ودور المشاركين في النصّ (المرسل والمستقبل)، وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حدّ سواء.**"[2]

ولقد بلورت خولة طالب الإبراهيمي معناه من الغربيين، فتحدثت عن مبادئه وإرهاصاته وتوسّعت فيه، بقولها:" **هو ذلك التحوّل الأساسي الذي تجاوز الدراسات اللسانية القائمة على دراسة البنية بكونها وحدة لغوية مغلقة، والجملة بكونها وحدة أساسية في التحليل اللغوي إلى اعتماد النص بمختلف أنواعه وحدة محورية لهذا التحليل مع الاهتمام بالوظيفة التواصلية التي تسهم في خلق الاتّصال بين أفراد المجموعة اللغوية.**"[3]

إنّ أهمّ ما يمكن أن نستنتجه من هذين التعريفين، هو أنّ لسانيات الكفاية النصّية تهتمّ بدراسة بنية النصوص بعد عجز لسانيات الكفاية اللّغوية عن ذلك، لأنّ هذه الأخيرة كانت مهتمّة فقط بدراسة البنية بكونها وحدة لغوية مغلقة، مع الوقوف على شتّى عناصرها التي بها يكتسب النص استقامته.

وفي ضوء لسانيات الكفاية النصية اهتمّ الباحثون ببعض الآليات التي أثارت عنايتهم؛ لِما لها من دور في تماسك النص وتعالقه، ومن ضمن تلك الآليات نذكر الاتّساق والانسجام، لأنّ الباحثين يَرَوْن أنّهما أهمّ ميزة لربط أجزاء النص.

3. مفهوم الاتّساق وعناصره:

الاتساق كلمة مترجمة عن المصطلح الإنجليزي Cohésion، وشأنه شأن مصطلح لسانيات النص، وَقَعَ في ترجمته بعض التباين والاختلاف في التّسمية، فسمّاه محمد خطابي بالاتساق[4]، أمّا تمام حسان فقد ترجمه بالسبك [5]، وتترجمه إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد

إلى التضام، أمّا عمر عطاري فيترجمه إلى الترابط، ويترجمه عبد القادر قنيني إلى الالتئام[6]، وممّا يجدر التنويه له أنّ رغم تشعب المصطلح في الترجمة إلّا أنّه يصبّ في معنى واحد.

ونقصد بالاتّساق ترابط الجمل في النص مع بعضها بعض بوسائل لغوية معيّنة [7]، وهذا الوصل يشتغل بالوشائج التي تظهر في شكل النص حَصَرَها محمد خطابي والكثير من الباحثين في الإحالة، الاستبدال الحذف، الوصل، والتكرار.

1.3 الإحالة:

هي عبارة عن ألفاظ تَرِد في نصّ لغوي لا تُفهم إلّا بواسطة علاقتها بألفاظ أخرى داخل النص أو بعلاقتها بالواقع الخارجي من سياق خاص أو معارف عامّة، ومن أشهر العناصر الإحالية في النص الضمائر، والعناصر الإشارية، وأدوات المقارنة[8].

2.3 الاستبدال:

وهو تعويض عنصر في النص بعنصر آخر، وعادة ما يكون العنصر المستبدل سابقا على العنصر المستبدل منه، وينقسم الاستبدال ثلاثة أقسام:

- **استبدال اسمي:** ويتمّ باستعمال عناصر مثل: آخر، نفس...إلخ.

(فأسي جد مثلومة. يجب أن أقتني أخرى حادة).

- **استبدال فعلي:** وهو استبدال فعل مكان فعل آخر، كقولنا: (هل تعتقد أنّ أحمد لا يصارحك بالحقيقة؟ أعتقد أنّ كلّ شخص يفعل. فكلمة يفعل استبدلت بلا يصارحك الحقيقة).

- **استبدال قولي:** ويستعمل فيه أدوات مثل: كذلك، أيضا، لا، نعم، أجل، حيث تُعوِّضُ تلك المفردات عن جملة أو جمل كاملة، ويمكن التمثيل لذلك كالآتي: حضر محمد الدرس باكرا، وعبد الله كذلك. فنابت (كذلك) عن حضر عبد الله الدرس[9].

3.3 الحذف:

يُعرف بأنّه عدول المتكلّم عن ذكر عنصر أو أكثر من الكلام اختصارا، ولا ينبغي أن يُفهم على معنى أنّ عنصرا كان موجودا في الكلام ثمّ حذف بعد وجوده، وإنّما ينبغي فهم

ذلك على أنّ المتكلّم قام بحذف العناصر المكرّرة دون الإخلال في المعنى كونها فُهِمت من السياق[10].

وينقسم إلى ثلاثة أقسام: حذف اسمي، وحذف فعلي، وحذف شبه جملة[11]، وسيأتي التفصيل إن شاء الله.

4.3. **العطف:**

ومنهم من يسمّيه بالوصل، ويعرّف بأنّه تحديد للطريقة التي يترابط بها اللّاحق مع السّابق بشكل منظم، وأنّ النص عبارة عن جمل متعاقبة خطّيا، ولكي تدرك كوحدة متماسكة نحتاج إلى عناصر رابطة متنوّعة تصل بين أجزاء النص[12].

5.3. **التكرار:**

ويتمّ الربط بالتكرار عن طريق إعادة الكلمة بنفسها، أو بإعادة العنصر المعجمي، أو ترادف، أو شبه ترادف، ويحصل عندما يحيل اللّفظ الثاني المكرّر إلى اللّفظ الأوّل مما يحدث نوعا من الربط بين الجملتين اللّتين حدث فيهما التكرار في إطار النص[13].

4. مفهوم الانسجام وعناصره: امتاز الانسجام بالخصائص التي جعلت اللّسانيين يهتمّون به، فبعد أن اهتمّوا بالاتّساق الذي يبحث عن العلائق التي تسعى إلى ربط الشكل الداخلي للنص، نَادَوْا بضرورة البحث في الشكل الخارجي للنص، وَإلاّ غَابَ على المتلقّي فهم بعض النص، وفَقَدَ هذا الأخير نصّيته، وفي ذلك يقول سعيد بحيرى:" النصّ عندما يكون مترابطا من النّاحية الشّكلية، وغير مُترابط من النّاحية الفكرية نقول إنّ نصّيته لا تكتمل"[14].

هذا يعني أنّ الانسجام يهتمّ بالروابط الدّلالية، أو إنْ شئت قلْ العلاقات الخفيّة الموجودة داخل النصّ، وممّا ينبغي الإشارة له هو دور المتلقّي في رصد هذه الروابط التّي تَصِل أجزاء النص مع خارجه، وفي ذلك يقول الباحث محمود بوستّة: "التدرّج في بنية معرفيّة كليّة تكون بدايتها رصد العلامات الخفيّة التي تجعل من النصّ متماسك الوحدات ليكون للقارئ المبدع دورا في الحكم على انسجام النصوص وترابطها"[15]

فالمتلقّي هو من يقوم بالبحث عن العلامات والعلاقات الخفية التي تُسهم في التحام النصوص، وهذا لا يكون إلّا عند الباحث الكفء، الذي يمتلك مؤهّلات تساعده على ذلك.

والانسجام شأنه شأن الاتّساق يقوم بالرّبط عن طريق وشائج حَصَرها محمد خطّابي في السياق، التأويل، التغريض، وبنية الخطاب[16].

يبدو جليّا مما سبق، أنّ منهج لسانيات الكفاية النصّية وآلياته كمصطلحات هي غربية، ولكن هذا لا يعني أنّ تراثنا العربي كان بمنأى عن الممارسة النصّية، وبالأخصّ علماء التفسير الذين اهتمّوا بارتباط وانسجام الخطاب القرآني.

من هذا المنطلق، سنحاول الحديث عن عدّة قضايا عوّل عليها علماء التفسير، نظرا لِما لها من دور في جعل الخطاب القرآني وحدة، كما سنحاول البحث عن نظرتهم لهذه القضايا اللغوية، أي هل اهتمّوا بها كونها تسعى في اتّساق النص القرآني وارتباط أجزائه وانسجامه، أو أنّها تساعدهم على فهم وتفسير القرآن الكريم بغية إظهار وجوه إعجازه اللّغوي، أو أنّ هناك أسباب أخرى أدّت بهم إلى الاهتمام بهذه القضايا اللغوية؟

5. الجهود اللسانية النصية لدى المفسرين:

بعد أن أفضينا من إعطاء لمحة عن لسانيات الكفاية النصّية كما بلورها الغربيون، اتّضح لنا أن نتحدّث عن الأدوات التي استعان بها المفسّرون لإبداء ترابط الخطاب القرآني، وقد وقع اختيارنا على **الطبري** (**ت 310 هـ**) في تفسيره **جامع البيان عن تأويل آي القرآن الكريم**، و**الزمخشري** (**ت 538 هـ**) في تفسيره **الكشاف**، وأخيرا **الرازي** (**ت 372 هـ**) في **التفسير الكبير**، ولم يكن اختيارنا لهؤلاء العلماء اعتباطا، وإنّما كان ذلك بعد ما رأينا تفاوتهم في طريقة تفسيرهم لكلام الله تعالى، أضف إلى ذلك أنّ الدّراسات اللّغوية تميّزت عندهم لَمَّا قاموا بتفسير القرآن الكريم، فما التّفسير عندهم إلّا البحث في نَسَقيّة الجمل ومعاني الكلمات.

أ. **جهود الطبري:** أشار الطبري في تفسيره إلى قضايا لغوية سَعَت في تماسك الخطاب القرآني، وهي لا تقِلّ أهمية عمّا ذكره الغربيون، من ذلك ما لِلسياق من دور في

شرح المبهم من إحالة الضمائر وأسماء الإشارة والموصولات، وقد استشهد بوضياف رمضان في بحث له بتفسير الطبري لآيات قرآنية معتمدا على السياق، منها تفسيره لقوله تعالى : " **فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** " (مريم،الآية:24)، فقد ذهب المفسّرون في تأويل ذلك إلى قولين: الأوّل أنّه جبريل عليه السلام، والثاني أنّه عيسى عليه السلام، وقد رجّح الطبري القول بأنّ الاسم الموصول عائد على عيسى عليه السلام استدلالا بسياق ما قبله وما بعده، قال أبو جعفر الطبري : **"ألا ترى في سياق قوله:** " **فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ** " ثمّ قيل :**"فناداها" نسقا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه"**[17].

فقد اشترط الطبري لمعرفة عَوْد اسم الموصول الاعتماد على السياق الذي له الفضل في رفع اللّبس عن المتلقّي حتى يتسنى لهذا الأخير فهم الغامض، وهذا ما يدلّ على العلاقة الوطيدة بين السياق والإحالة التي أشار إليها الغربيون، فشرط فهم الإحالة الاهتمام بالسياق، وهذا الذي أولاه الطبري اهتماما في تفسيره، من ذلك تفسيره ما يلي:

قوله تعالى: " **فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ** " (المائدة،الآية:89)، فيرى أنّ الهاء في قوله **فَكَفَّٰرَتُهُۥ** تعود على **ما** في قوله تعالى : " **بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ** " كون من لَزِمَته في يمينه كفّارة وأخذ بها، غير جائز أن يقال لمن قد أُوخِذ: لا يؤاخذه الله باللّغو، وفي قوله تعالى: « **لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ** " (البقرة،الآية:225)، دليل واضح أَنَّهُ لَا يَكُون مُؤَاخِذا بوَجْه من الوجوه من أخبرنا تعالى ذكره أنّه غير مؤاخذ[18].

انطلاقا من هذا الرأي الذي استدلّ به الطبري في تأويله للآية، يتّضح لنا أنّ السياق هو من يضبط مواطن عَوْد الضمير وإحالته، ويسهم في ترجيح تأويل ما عن بقية الوجوه، بل وقد يكون له الفضل لإيضاح الغامض من الإعراب، فقد يحتاج إليه النحويون لمعرفة الحركة الإعرابية من جهة، وللتّفريق بين الفاعل والمفعول وغير ذلك من جهة أخرى، ومن شواهدنا على ذلك أيضا تفسيره لِ:

قوله تعالى: ":" **رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ** " (يونس،الآية: 88)، اختلف المعربون في إعراب **فَلَا يُؤۡمِنُواْ** فقيل: هو منصوب عطفا على قوله **ليضلُّوا** أو على أنّه جواب الأمر السابق، وقيل: هو مجزوم الدعاء من موسى عليهم بمعنى: فلا آمنوا، وقد اختار الطبري الرأي الثاني أنّه مجزوم استدلالا بسياق الآيات قال: وإنّما اخترت ذلك، لأنّ ما قبله دعاء وذلك قوله :" **رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ** فإلحاق قوله "**فَلَا يُؤۡمِنُواْ**" إذ كان في سياق ذلك بمعناه أشبه وأولى[19].

يتّضح لنا من هذه التأويلات السالفة الذكر، أنّ الطبري دائم العناية بالسياق كونه يستبين الإبهام والاشتباه في كلّ الآيات القرآنية، وله أثر جليّ في انسجام الخطاب القرآني، وأبعد من ذلك يروم إلى إدراك عَوْد الضمير والاطّلاع على الحركة الإعرابية وإعراب الخطاب القرآني.

ب. **جهود الرّازي:** نوَّهَ الرّازي في تفسيره بالقضايا اللّغوية التي سعت إلى ترابط النص القرآني وهي لا تقلّ أهمية عمّا أبان عنه الغربيون، ويعدّ مُؤَلَّفه **التفسير الكبير** من أبرز التفاسير التي أشارت لبعض المعايير المرتبطة بلسانيات النص؛ وإن كان هذا المصطلح لم يرد عنده مباشرة إلا أنّه لم يسْهَ عن مواضيعه حتى يتمكّن من فهم الخطاب القرآني، ولذلك سنحاول أن نتعرّض لأهمّ قضايا لسانيات النص التي برزت في تفسيره، والذي سيثير اهتمامنا أكثر رؤية الرازي لها فيما تسعى وتسهم:

الوصل: لما كان الوصل من أبرز الآليات التي تؤدّي إلى ربط الكلام بعضه ببعض، أَوْلَاهُ الرّازي اهتماما كبيرا لدرجة أنّه ذكره في جزء من تفسيره للخطاب القرآني.

ومن الأقوال المهمّة التي ذكرها حول وصل الآي القرآني قوله :("**ذكروا في اتّصال هذه الآية بما قبلها وجوها...**"، وقوله: "**كيفية اتّصال هذه الآية بما قبلها وجوه...**"،**وقوله أيضا: "في كيفية النظم وجوه"**)[20]

فنرى أنّ الرازي يؤكّد بهذه الأقوال قاعدة، يرتكز عليها لفهم معنى الآيات القرآنية، وهي لا تختلف كثيرا عمّا يمارسه علماء النص اليوم ، وتتمثّل في أهمية معرفة طريقة اتّصال الآيات القرآنية فيما بينها أي ما يحقّق نسقية النص القرآني ويجعله يبدو مترابط الآيات، وهو ما يسمىّ اليوم بالاتّساق النصي.

* **قضية الحذف:** ممّا نوّه إليه الرّازي في تفسيره للقرآن هو قضية الحذف وما له من جمالية، وخير شاهد عن ذلك تفسيره لقوله تعالى من سورة يوسف : " **قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ** " فمعنى الآية قسمٌ بالله أنّه لفي شقائه القديم بما يكابد من الأحزان على يوسف[21].

فالذي يتبادر للمتأمّل في هذه الآية القرآنية، أنّ الصمت على ما تحمّله نبيّ الله يعقوب من شجون وآلام لِفَقْدِ ابنه يوسف أفصح من الذكر، إذ أنّ لهذه الحذف مرتبة في نفس القارئ لِما تدع فيه من تشويق.

* **قضية الإسناد:** لقيت قضية الإسناد اهتمام اللغويين باعتبارها قرينة تساعد على تحقيق الوصل والربط المعجمي والنحوي للتراكيب، وقد أولاها الرّازي عناية خاصة حتى يتأتّى له تفسير العديد من الآيات القرآنية، من ذلك تفسيره لقوله تعالى : **"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَة، فَبَعَثَ الله النَّبِيين مُبَشّرِين وَمُنْذرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُم الكِتَاب بِالحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ"** (البقرة:الآية 213) فالرّازي يرى أنّ قوله **"ليحكم"** فعل لابدّ من استناده إلى شيء تقدّم ذكره، فيكون المعنى إمّا ليحكم الله، أو النبيّ، أو الكتاب[22].

فالمتطلّع لقول الرّازي **لابُدَّ مِن اسْتِنَاده إلى شيء** يستشفّ أنّه يشترط شرطا أساسيا، هو وجود للمسند **يحكم** مسند إليه قُدّر بالله أو النبي أو الكتاب، فلا يمكن الاستغناء عنه، وإن كان الأمر كذلك أي لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، **أفليس هذا هو الترابط النصي؟**

الجواب يكون **بَلَا** هذا هو الترابط النصي، ومما يثبت الكلام أكثر هو أنّ الرازي لم يشترط المسافة بين المسند والمسند إليه، وإنّما اكتفى بقوله **فلابدّ من استناده إلى شيء تقدم ذكره**، أي سواء كان في الجملة نفسها أو بعيد.

ج. **جهود الزمخشري:** لم يكن الزمخشري أيضا بمنأى عن المرتكزات المقترنة باللّسانيات النصية، من ذلك ما يُسهم إلى انسجام الخطاب القرآني، هذا الأخير الذي يعدّ وحدة لغوية مترابطة، ومن المعايير النصية التي تؤدّي إلى الانسجام النصي القرآني السياق، فقد فصّل الزمخشري فيه تفصيلا وأفصح دور السياق لاستنباط معاني الكثير من الآي القرآني، وأخصّ من هذا تناسق وتناسب نزول السور القرآنية للحدث، فالسياق هو من يفضي إلى معرفة دلالة القرآن الكريم ومعاني العديد من الآيات.

ومن الآيات القرآنية التي استرفد فيها الزمخشري بالسياق لشرح المبهم وتقريب فهم دلالة الآي القرآني، بل و التي تجعل القارئ أو المفسّر في حيّز اللّبس في فهمها إن لم يربطها بالسياق، الآيات المتعلّقة بالتدرّج في تحريم شرب الخمر:

- **قوله تعالى:" يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ "** (البقرة، الآية:219).

- **قوله تعالى:" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ "** (النساء، الآية:43).

- **قوله تعالى:" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ"** (المائدة، الآية:90).

فالذي نستشفّه من هذه الآيات أنّ تحريم الخمر جاء بالتدرّج، وقد روعي فيه الواقع الإنساني وكيفية تطبيب هذه الرذيل ة، ولو اقتصر المفسرون في استنباط الحكم على الآية الأولى وحدها دون استثمار للسياق الذي وردت فيه و الآيات الناسخة لها لما كانت الخُمر محرّمة إلى يومنا هذا...، بل إنّ مناسبة نزول الآية الأولى كانت تناسب مجتمعا نشأ على شرب الخمر والتغنّي والتفاخر بها، حتى إنّهم قالوا للرّسول صلى الله عليه وسلم حين نزلت : **"يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله،(فسكت عنهم)"**[23].

فالزّمخشري انصبّت عنايته على السياق كونه يستبين الإبهام والاشتباه في كلّ الآيات القرآنية، وله أثر جليّ في انسجام الخطاب القرآني ، هذا ولا يخفى علينا ما للإطار الزّماني

والمكاني من دور في مواءمة سبب النزول، ولو لم يهتمّ الزمخشري بهذه الظروف والمناسبات لوقع في مزلّة الخطأ وتاه في البيداء.

ومن المرتكزات النصية التي فصّل فيها الزمخشري تفصيلا قضية الوصل بالإحالة، ومن شواهده على ذلك تفسيره لقوله تعالى : " **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا** " (العنكبوت،الآية:58)، فقد تمّ الوصل بين الجملتين عن طريق الضمير في الفعل **فلنبلونّهم** إذ أنّه يعود على المبتدأ **الذين**، والرأي في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف إجراؤه مجرى **لَنَبلُوَنَّهُم وَنُبَوِّئَنَّهُم**...[24] .

أي أنّ ضمير الجمع **هم** الذي أحال إلى المبتدأ ساهم في ربط الآي القرآنية، وهي إحالة نصّية إلى سابق، وبدورها تقوم باتّساق الخطاب كما بلورها الغربيون.

ولم يكتفِ الزمخشري بذكر آليات الاتّساق منفردة عن آليات الانسجام كما يراه الغربيون، وإنّما ذكر العلاقة المتينة بينهما كعلاقة الإحالة بالسياق، فهذا الأخير في بعض الأحايين يسهم في تقدير مرجع الضمير، ومن الشواهد القرآنية التي استدلّ بها الزمخشري قوله تعالى :" **وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ** ". (الأنعام،الآية:121) فالضمير في قوله " **وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ** ". لم يجِد المفسرون على من يعود، ولذلك قدّروه مفهوما من السياق، ويرى الزمخشري أنّ الضمير يعود إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي، يعني وإنّ الأكل فيه فسق"[25].

فقد جعل المصدر مرجع للضمير، ويُفهم من المسند في الجملة وهو الفعل، كما يكون من لفظه، كما أجاز الزمخشري أن يعود الضمير على المصدر المؤوّل المذكور في الجملة أو على المصدر الصريح كما في قوله تعالى: :" **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ** " (الأنفال،الآية: 60)، فالضمير في ترهبون به راجع إلى ما استطعتم من منظور الزمخشري[26]، أي أنّه ارتكن إلى السياق لإدراك أنّ الضمير قد أومأ هنا على المصدر المؤوّل ما استطعتم، فالسياق هو من كانت له السلطة في فهم إحالة الضمير وشواهد القرآن كثيرة قد استدلّ بها الزمخشري.

6.الخاتمة:

بعد جملة من محطّات الدّراسات اللّغوية من تفسيرٍ وتِبيانٍ لمعاني الآي القرآني من قِبل علماء التفسير الثلاثة – الطبري، والرازي، والزمخشري – وفي إبّان توضيح مرتكزات الاتّساق والانسجام التي حَظِيت باهتمام هؤلاء المفسّرين لما لها من دور في تجلية معاني القرآن الكريم، نصِلُ إلى ما يلي:

- اهتمّ **الطبري** بآلية السّياق كونه يوضّح معاني الآي القرآنية التي قد لا تفهم إلّا من خلال ربطها بالمناسبات ، وقد ذكر الطبري ما للسياق من أثر جليّ في انسجام الخطاب القرآني، أضف إلى ذلك أنّه يروم إلى إدراك عَوْد الضمير والاطّلاع على الحركة الإعرابية وإعراب الخطاب القرآني.
- لم يتناول **الرّازي** معايير اللّسانيات النصّية بالمصطلحات نفسها التي وردت عند الدّارسين الغربيين وإنّما بالمفهوم فحسب، فمثلا نجده استعمل مصطلح **إسناد الشّيء إلى غيره** أو **الوصل** بدلا عن مصطلح **الاتّساق**، علما أنّ المعنى بينهما يبقى واحدا وإن اختلف المصطلح.
- ذكر الزّمخشري كلّ ما من شأنه أن يجعل آي القرآن الكريم في نظر القارئ تبدو وحدة لغوية واحدة، ومن ذلك السّياق الذي يسهم في كثير من مواطن القرآن الكريم بانسجامه، والذي ينبغي على محلّل الخطاب الاطّلاع عليه حتّى لا يقع في لبس يؤدّي به إلى غموض الفهم أو الخطأ، لأنّ تواري قد لا يكون إيضاحها إلّا من خلال معرفة سياقها الواردة فيه.

وفي الأخير يتّضح لنا أنّ مفسّري تراثنا لم يكونوا بمنأى عن العلماء الغربيين في موضوع لسانيات الكفاية النصيّة، إلّا أنّ عنايته م بآليات – هذا المنهج الغربي – كان بُغية إيضاح المبهم والمشتبه في كلّ الخطاب القرآني.

قائمة الإحالات:

[1]- ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته، منشورات الاختلاف، الجزائر.ط1 /2008، ص 62.

[2]- إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط2000/01، ص 36.

[3]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2000/1، ص 179.

[4]- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب ، الدار البيضاء-المغرب، ط2-2006، ص 05.

[5]- دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، ط1998/1م، عالم الكتاب القاهرة ، ص 103.

[6]- جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص، دراسة لسانية نصّية، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط2009/1، ص 221.

[7]- المرجع نفسه، ص222.

[8]- ينظر: المرجع نفسه، ص 347- 348.

[9]- المرجع نفسه، ص 354.

[10]- تمّام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة الدار البيضاء، ط 2001/1، ص 298.

[11]- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 22.

[12]- المرجع نفسه، ص 227.

[13]- ينظر:جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص، دراسة لسانية نصّية، ص 359.

[14]- سعيد حسن بحيرى، علم لغة النّص المفاهيم والإجراءات، ص 146.

[15]- محمود بوستة، الاتّساق والانسجام في سورة الكهف، ماجستير في الأدب العربي، 2009، ص 149.

[16]- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 52-59.

[17]- بوضياف رمضان، الربط بالإحالة والمعاقبة في القرآن الكريم ، مذكرة ماجستير، 2014-2015، ص106-107.

[18]- ينظر: محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والإعلان، ط1/ 2001، ج8، ص 618-622.

[19]- المرجع نفسه، ص 107.

[20]- محمد خطابي، لسانيات النص، ص 167، نقلا عن محمد الرازي فخر الدين، التفسير الكبير(دار الكتب، بيروت، لبنان،ط1-1981، ج3، ص255/ج4، ص10.

[21]- ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج 17 – ص 208.

[22]- ينظر:فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج6،ص15.

[23]- ينظر: الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، دار بيروت، بيروت، 1984 ، ج1 ، ص 259-262.

[24]- ينظر: الزمخشري الكشاف ، ج3، ص 461-462.

[25]- ينظر: علوم اللغة، كتاب دوري، مقالة دور السياق في تقدير مرجع الضمير في الدراسات اللغوية والقرآنية، محمد أحمد خضير، المجلد1، العدد الأول 1999، دار غريب، القاهرة، ص 71.

[26]- المرجع نفسه، ص 72.